

رحلة أسماك السالمون

عجيب أمر تلك الأسماك ، المراقبة المستوى والعالمية القيمة ، حين تندفع في جماعات هائلة من أعماق المحيط، الذي تغذت فيه وكبرت ، إلى موطنها الأصلي في النهر الذي شهد مولدها. أما هدف الرحلة فيتمثل في إنجاز عملية التزاوج والتلقيح التي تتم في مياه ذلك النهر تمهيداً لعودتها مرة أخرى إلى أعماق المحيط الشاسعة. الأسماك جميلة جداً، وتتعايش مع بعضها بأعداد ضخمة ، وهو الأمر الذي يعرضها للعديد من المخاطر، أولها الهجوم الشرس الذي تقوم به الحيتان الكبرى ، حين تشتم رائحة هذا التجمع الضخم، فتندفع نحوها مثل الغواصات النووية ، ثم عندما تحكم قبضتها عليها ، يكفى الحوت الواحد أن يفتح فكيه لكي يبتلع في قضة واحدة عشرات الأسماك. لكن على الرغم من ذلك. يستمر التجمع في المسير ، وبسرعة تصل أحياناً إلى ستين كيلو في الساعة، حتى يصل إلى مصب النهر الموهود ، ولأن مستواه يكون عادة أعلى من مستوى المحيط، فإن أسماك السالمون تضطر للقيام بقفزة عالية في الهواء لكي تسقط في مياه النهر، عندئذ يظهر الخطر الثاني ، متمثلاً في مجموعة من الدببة الضخمة التي تجيد التقاط العديد منها ، وتمزيقها، والتلذذ بلحمها الشهى، وينضم إليها في ذلك عدد من الجوارح التي تنقض من السماء، فتخطف بعضها إلى أعشاشها في قمم الجبال، أو أعالى الأشجار.

بعد أن تتم عملية التزاوج والتلقيح، يسقط الكثير من الذكور إعياء، فتطفو جثثهم الفضية على سطح النهر لتكون وليمة سهلة لكل

أنواع الهوام، بينما يتساقط البيض الملقح ليستقر بين صخور النهر، وهنا أيضاً يظهر عدو آخر، هو طائر يجيد الغطس في الماء، حتى يصل بمنقاره إلى البيض المستقر بين صخور القاع، فيلتقط العديد منه. ومن العجيب أن ما يتبقى من تلك الذرية التي تبلغ الملايين لا يزيد عن أكثر من 6% هي التي عندما تفقس، وتنمو قليلاً، تنحدر من النهر إلى المحيط، لكي تتغذى وتكبر، استعداداً لقيامها بنفس الرحلة التي قام بها أبائها من قبل. والتي لم يستطع علماء الأحياء المائية حتى الآن أن يقفوا على تفسير علمي مقنع لها.

لكنني أزعج أن هناك تفسيراً فلسفياً لذلك، وهو أن رحلة أسماك السالمون تشبه إلى حد كبير رحلة الجنس البشري التي تتطلب الكثير من الجهد والوقت والمسافة، ولما يحدث ذلك إنما بهدف استمرار النوع من خلال تناسل أجيال جديدة، لكنه وهو يسعى إلى ذلك يتعرض للعديد من المخاطر، التي يسقط فيها الكثير قبل أن يصلوا إلى الهدف، أو حتى وهم حول الهدف، أما الناجون فهم الذين يعتمدون أحياناً على قوتهم الذاتية، وأحياناً أخرى على ضربة الحظ التي تنقذهم من المهالك. المهم أن التجربة الفردية تمتزج بالتجربة الجماعية إلى حد الذوبان. والمشئ الوحيد المختلف بين الجنس البشري وأسماك السالمون أنها لا تتصارع مع بعضها، بخلاف البشر الذين يأكل بعضهم بعضاً. وإذا كانت الأخطار التي تنزل بالأسماك تأتي دائماً من الخارج، فإن الجنس البشري يضيف إليها الكوارث التي يفعلها هو بنفسه !